مجتمعنا

أكتب عن هذا الكتاب بمحبة مرتين:

الأولى لأنه عن مجتمعنا

والأخرى لأن مؤلف الكتاب المغفور له الدكتور عبدالحميد يونس درس لى الأدب الشعبى بكلية الآداب. ففى تقديم الكتاب، وفاء التلميذ للأستاذ وانتماء الحى إلى شعبه وآدبه وتراثه انتماء لا يهتز مهما عصفت الأحداث.

يتحدث الدكتور عبدالحميد يونس عن مقومات مجتمعنا وتتمثل فى:

النيل.. الشمس.. الصحراء.

وأنا أضيف «الدين» فحضارة مصر حضارة دينية قبل آلاف السنين بما نفذت إلى التوحيد وإلى البعث والعالم الآخر والحساب والثواب والعقاب وعودة الروح.. والضمير.

* فاختيار النيل مجراه بين صحراوين، جعل الجاذبية البشرية إلى الداخل بعكس أقطار أخرى جاذبيتها البشرية إلى أطرافها أو إلى خارج حدودها.

* أكسب النيل، مصر، خلة «الاستمرار» المتجددة أبدا على مثال منه فى وثوق. وهنا ينفى عنها المؤلف الجمود وعدم التطور إذ يراها، والحقيقة معه، قد احتفظت بالتواصل بين أجيالها ومراحل تاريخها وفترات سيرتها وكانت أمينة كل الأمانة على تراثها فلم تكن سلفية خالصة، ولا ثابتة جامدة، ولا رجعية تستقبل الحياة بظهرها، وإنما كانت مستأنية فى تطورها مثلها فى ذلك مثل نيلها فى حركته الدائبة فى أناة.. متحدية العوائق كما يتحدى هو الجنادل والصخور.

أما الشمس فقد استمدت مصر منها الوضوح والبساطة والنظام.

ثم يأتى عامل الصحراء التى أعانت بدورها على الاستقرار والحفاظ على آثار الاقدمين ونفائسهم ومعارفهم وأمجادهم.

والصحراء الشرقية وصلت بين مصر والجزيرة العربية.. كما وصلت الصحراء الغربية بين مصر والمغرب العربى أى شمال افريقيا وبفضل هذا الموقع بين نقطتى الاتصال هاتين، أصبح الوطن المصرى نقطة الارتكاز فى العالم العربى.

ويمضى الكتاب يصور معالم مصر والمسارب البعيدة التى تسرى إلينا منها مظاهر السلوك المصرى اليومى فى الحياة الخاصة والعامة.

إنه نزوع الحى إلى تحقيق ذاته وتعيين مكانه من الحياة الواعية المتدافعة البانية المنتصرة.

يتكلم الكتاب عن عمل الشعب المصرى فى الملاحم وعن عمل مصر فى (الهلالية) وقصة (سيف بن ذى يزن).. عن عمل مصر فى (ألف ليلة وليلة).

يتحدث الكتاب عن أسلوب مصر وسر سخريتها وعن النفسية المصرية الجماعية وعن حلم مصر بالمخلص.

وعن الحزن المصرى وانعكاساته على فن الغناء خاصة المواويل.. وإن كان الشجى المصرى فى رأيى يبدو فى الأدب نزوعا إلى التصوف.

ويقف الدكتور عبدالحميد يونس وقفة طويلة عند (اللغة القومية) وعن مشكلة الفصحى والعامية وعن مفهوم جديدة للثقافة وعن رسالة المعلم.

يتحدث عن العادات والتقاليد وعن معاناة الفلاح المصرى من الاستعمار الذى حاول الفصل بين الطبقات، وتسميته الفلاحين (أصحاب الجلاليب الزرقاء) لكى يباعد بينهم وبين غيرهم من المواطنين.

تكلم عن (أسوار المدينة) وعن مركزية القاهرة وعن التغريب وعن الثورة الصناعية التى تستكمل اكتشاف الوطن وتقوى احساس الشعب بذاته، وتصل بين الريف والقرية والمدينة وترفع من مستوى المعيشة وتخلق طاقات جديدة بشرط أن تساير فى الوقت نفسه منطق البيئة المصرية وتفيد من تراث الشعب وتحافظ على نماذجه الاجتماعية الصالحة للتطور وتخلصه من الكبت والخوف وعقدة النقص، أمام غيره من المجتمعات.

يدعو الدكتور عبدالحميد يونس فى هذا الكتاب إلى «التخطيط القومى» أى التخطيط العلمى الدارس الجامع.. التخطيط الذى ينظر إلى الوطن كله نظرة واحدة.. فتنمو المدن المصرية نموا

اجتماعيا مطردا يلائم قوتها البشرية ويتخلص سكانها من الأسوار النفسية التى أقامت جدارا بينهم وبين الحكام من ناحية، وبينهم وبين الأجانب من ناحية أخرى.. وتصبح هذه المدن جوارح فى الكيان الاجتماعى يتصل بعضها ببعض وتسير جميعا على نموذج اجتماعى عام وتفيد جميعا من ميزانية الدولة فى الخدمات العامة وتقوم الحياة فيها على التعاون والتآزر بين الأفراد والعناصر والأحياء.

***

كتاب (مجتمعنا) يطب للذات المصرية لتبرأ من المعاناة والهموم وتتخلص من المعوقات وتنطلق بطاقاتها كلها لتواكب التقدم فى العلوم والصناعات وهى قادرة عليه بوراثاتها الحضارية ورياداتها الحضارية التى تكسب النفس ثقة ليس منها الغرور ولكنها تفسح الرؤية أمام الإرادة إذا قدرت وقررت.

يقول الدكتور عبدالحميد يونس: (إذا كانت إنسانية الفرد تتحقق بمعرفة نفسه، فإن إنسانية المجتمع تتحقق بمعرفة نفسه الجامعة.. والمعرفة فى الحالين ليست نظرا ولا تأملا، ولكنها سلوك وعمل).

كتاب «مجتمعنا» كتاب للقراءة والدرس.. كتاب ومنهج معا.